

قصص ذات مغزى

تعاليم المعلم برمضان بوغانطا

الترجمة: موهبا عباس مسعود



الجاموسة الناطقة

في بلاد الهند والسند، وعلى سفح جبل مطل على واد أخضر خصيب ترصّعه الزهور الجميلة وتنفحه النسائم العليقة بالأريج الفواح كانت تقبع صومعة هادنة يشيع مرآها في النفس الطمأنينة والرضا.

هذه الصومعة كانت عبارة عن كهف حفرته عناصر الطبيعة في صخور الجبل وعاش فيه معلم مستنير مع مرید تواق ومشتاق لعلوم الروح.

وما أن كان الفجر يمسح الظلمة عن وجه التلال حتى كانت المنحدرات تشرق بابتسامات طوباوية تنعكس في أزاهير لا حصر لها من كل لون وشكل، فيستقبل المعلم وتلميذه شمس الصباح بترانيم توظف وتهز عنوبتها الجماد، إذ كان شروق الشمس يذكرهما بإشراقه شمس الحكمة والصحة من إغفاءة الجهل التي طال عليها الزمن. وكانا يبتسمان مع الطبيعة بعد استغراقهما السعيد في سكون الليل.

وبينما كانت أمواج الفجر لا تزال تغمر الوادي الهادئ كان المعلم يطلب من التلميذ الجلوس في وضع التأمل والإصغاء لتعاليمه في انتباه عميق. وكان التلميذ يتلقى ويتلقف علوم الروح كما لو كانت جواهر نادرة ودرراً ثمينة تتساقط من فم مرشده.

لكن ذات يوم لاحظ المعلم أن تلميذه الشاب كان شارداً ذهن مشتبك الفكر، فسأله بلطف: "يا بني يبدو لي اليوم أنك غير منتبه لكلماتي، فعقلك شارداً جوال بين الحقول في مكان آخر. فبالله عليك أن تخبرني عن سبب هذا الشرود".

فأجاب التلميذ بكل احترام:

"يا سيدي الكريم، لا يمكنني اليوم التركيز على محاضرتك، لأن عقلي رغباً عن إرادتي يفكر بالجاموسة التي حصلنا عليها مؤخراً وهي الآن ترعى النبت الطري على كتف الوادي".

وبدلاً من أن يوبخ المعلم التلميذ طلب منه أن يذهب إلى حجرة السكون ويغلق الباب

عليه ولا يفكر بشيء سوى الجاموسة.

مر يوم، وفي صباح اليوم التالي نظر المعلم من النافذة الصغيرة في حجرة السكن فرأى تلميذه ما زال متأملاً على الجاموسة. فسأله: "ماذا تفعل الآن يا بني؟" أجاب التلميذ: "إنني أرى مع الجاموسة في الحقل يا سيدي. فهل تريدني أن أخرج وأتي إليك؟"

أجاب المعلم: "لا يا بني، لم يحن الوقت بعد. تابع الرعي مع جاموستك".

مر يوم آخر، وفي صباح اليوم الثالث نظر المعلم ثانية من نافذة حجرة السكن وسأل تلميذه: "أي بني، ما الذي تفعله؟"

أجاب التلميذ مغتبطاً: "يا سيدي الملائكي، إنني أبصر الجاموسة في غرفتي وإنني أطعمها بيدي. فهل تريدني أن آتي إليك مع الجاموسة؟"

أجاب المعلم: "ليس الآن يا بني، استمر في رؤيتك للجاموسة وإطعامك لها".

مر يومان آخران في التأمل وتصوّر الجاموسة، وفي اليوم الخامس نظر المعلم عبر نافذة حجرة السكن فرأى التلميذ في نشوة غامرة، فسأله: "يا بني بالله قل لي ما الذي تفعله الآن؟"

فجار التلميذ مقلداً صوت الجاموسة وقال: "ما الذي تقصده؟ أنا لست ابنك؟ أنا جاموسة".

وهنا ابتسم المعلم وقال:

"كفى يا حضرة الجاموسة، وقد آن لك أن تخرج من حجرة السكن".

لكن التلميذ لم يشأ الخروج، بل دمدم مزجراً: "كيف يمكنني الخروج من هذا الباب الضيق وجسمي بهذه الضخامة".

عندها دخل المعلم إلى حجرة السكن وأعاد "الجاموسة" من حالة الإنخفاف إلى الوعي العادي. وقد دهش التلميذ وابتسم عندما رأى نفسه يدب على يديه ورجليه محاولاً تقليد الجاموسة هدف وغاية تأمله.

وبعد وجبة طعام خفيفة ذهب التلميذ للإصغاء إلى كلمات معلمه الذي سأله عن العديد من الأسئلة الروحية العميقة فأجاب عليها كلها بدقة تامة لم تتوفر فيه من قبل. أخيراً قال المعلم: "أحسنت يا بني وأهنتك من كل قلبي على ما بلغت من تركيز عقلي تام. إذ أصبح بمقدورك ضبط أفكارك والتوحد الكلي مع هدف تأملك، وذلك هو النجاح الأكبر".

ضفدعان في خطر

ذات مرة كان ضفدع كبير مترهل وطفدع صغير مليء بالنشاط والحيوية يسعيان في مناكبها عندما قادهما حظهما العاثر للسقوط – بنطة غير موفقة – في سطل من الحليب الطازج.

سبحا لساعات طويلة في ذلك السائل الأبيض على أمل الخلاص من تلك المحنة

القاسية، لكن حواف السطل كانت عميقة وزلقة، وقد تراعى لهما شبح الموت فانتابتهما مشاعر الرهبة وواصلتا السباحة.
وما أن شعر الضفدع الكبير بالإرهاك حتى فقد شجاعته وخارت عزيمته. ولم يبدُ له من بارقة أمل في النجاة. فقال لصديقه الصغير:
"لماذا نحاول معاكسة القدر وبذل الجهود دون طائل؟ لا يمكنني يا صاحبي مواصلة السباحة".

لكن الضفدع الصغير الذي كان يسبح بهمة مستميتة وسط الحليب قال لرفيقه:
"تابع الجهود وإياك أن توقف المحاولة، فمن يساعد نفسه يأتيه العون من حيث يدري ولا يدري".

واصلتا السباحة لبعض الوقت لكن الضفدع الكبير قرر أخيراً أن لا فائدة ترجى من كل تلك الجهود، فقال بشهقة أخيرة: "يا أخي الصغير، فنستسلم لقدرنا وها أنا قد قررت بالفعل التوقف عن السباحة، فالوداع".

وما أن كف عن المحاولة حتى غاص إلى أرض السطل وتلك كانت النهاية بالنسبة له.
بقي الضفدع الصغير يصارع الحليب والقدر الرهيب بمفرده. وفكر بينه وبين نفسه:
"إن التوقف عن بذل الجهود يعني الموت، ولذلك سأواصل السباحة حتى يبسر لي الله مخرجاً".

مرت ساعتان وكاد الإعياء المضني يشل ساقَي صديقنا الصغير وبدا له أنه قد فقد القدرة على الحركة ولو لدقيقة أخرى.
ولكن عندما فكر بصديقه المرحوم قال لنفسه:

"الكف عن المحاولة يعني أن أكون وجبة طعام على مائدة أحدهم، وهذا ما لا أرضاه لنفسي. ولذلك سأواصل الخوض في هذا السائل اللبني حتى تأتي ساعتني فيما إذا كانت تلك الساعة آتية لا محالة. لكنني لن أوقف المحاولة إطلاقاً. فما دامت الحياة دام الأمل ولذلك لن أستسلم".

كان منتشياً بالتصميم القاطع فواصل السباحة بعزم لا يعرف الخذلان، وراح يجوب السطل المرة تلو الأخرى ضارباً الحليب بأطرافه النحيلة ومكوّناً منه أمواجاً تعلوها رغوة شديدة البياض.

بعد فترة شعر بأن جسمه قد تخدّر تماماً وأنه على وشك الغرق. لكن في تلك اللحظة بالذات شعر بشيء صلب تحته. وفرط دهشته وجد نفسه يقف على كتلة من الزبدة خضها ومخضها بفعل حركته الدائبة ومجهوده المتواصل!

وبقفزة واحدة تمكن صديقنا الضفدع الجذع من الخروج من سطل الحليب إلى الفضاء الرحيب.

القلق هو سمة عامة يشترك فيها كل البشر. ففي تعاملنا اليومي مع الآخرين نجد أن معظم الناس يصرفون ساعاتٍ طويلةٍ من يومهم مهمومين قلقين، لا سيما بسبب الظروف المعيشية الصعبة..

القلق بسبب العمل والمشاكل الصحية والإجتماعية والصعوبات المالية ومشاكل أخرى تواجهنا حتى تصبح تلك المخاوف طبيعة ثانية بالنسبة لنا وجزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. لا جدال أنه يجب أن نأكل ونشرب ونلبس الثياب يومياً. وقد أضفنا أيضاً ضرورة رابعة إلى روتيننا اليومي وهي القلق.

ولكن يجب أن نميز بين القلق والتفكير. فعندما يواجه أحدنا صعوبة يستطيع بالتفكير البناء أن يسيطر على حواسه وقواه النفسية وإرادته وقدراته العقلية، مما يجلب نتائج جيدة من حيث إيجاد مخرج للمعضلة وحل للمشكلة.

ولكن إن راح الشخص يقلق في تعامله مع المشكلة يصبح كالطفل الصغير لا حول له ولا قوة. ويصبح ضيق الصدر، متهيجاً منزعجاً غير قادر على رؤية ولو بصيص هداية مهما كان ضئيلاً، فيقع في حيص بيص وتكتفه غيوم الحيرة والإرتباك من كل جانب. وإذا استولي عليه الإنفعال يفقد القدرة على المقاومة ويجد نفسه مندفعاً مع التيار في نهر الحياة الصاخب دون إمكانية الوصول إلى شاطئ الأمان.

القلق يخلق اهتزازاً سلبياً في داخلنا ويجعلنا أكثر عرضة لاستقبال كل ما هو سلبي في الآخرين من حولنا فنصبح محاطين بأموج غير صحية. في مثل هذه الحالة نجلب لأنفسنا المرض والإحباط وفقدان الأمل والشكوك والمعاناة والأحزان، بل وربما الموت أيضاً. القلق سببه الخوف الذي يطوقنا بصورة أو بأخرى ويلفنا بحبال غير منظورة يصعب التخلص منها.

يقال أن ملاك الموت طلب من أحد الأولياء الصالحين الموكل إليهم حراسة إحدى القرى الدخول إلى تلك القرية، لكن الولي رفض الطلب. فأجاب الملاك أن بعض سكان القرية هم على وشك الموت ولا بد من حضوره لأخذ أرواحهم. فسأله الولي عن عدد هؤلاء الأشخاص، فأجاب الملاك ثلاثة فقط، فوافق الولي وسمح له بالدخول إلى القرية. بعد دخول ملاك الموت القرية بقليل أصيب ثلاثة أشخاص بالجذري وتوفوا. لكن عدد الوفيات تزايد حتى بلغ المائة. فاستدعى الولي الملاك وطلب منه تفسيراً لذلك. فأجاب الملاك: "حسبما وعدتك لم آخذ سوى ثلاثة أشخاص فقط. أما الباقون فقد ماتوا من الخوف!"

ألا نخاف دوماً من أن الظروف المعاكسة ستعرض سبيلنا وبذلك نعاني من الخوف؟ في الحقيقة في معظم الأحيان نجد أن الأشياء التي نخشاها لا تحدث لنا. وهناك أناس أصبح الخوف بالنسبة لهم أمراً حتمياً، ويبدوا أنهم يستمتعون به!

نرى أحدهم يصاب بمرض أو حالة ما فنخشى أن يحدث نفس الشيء لنا. ولكن إن غيرنا مجرى تفكيرنا وتفاءلنا بأن الخير قادم إلينا نستقطب بذلك التفكير ظروفاً إيجابية مرغوبة بفضل إشباع عقولنا بالأفكار الإيجابية. ونتيجة لذلك سنتمكن أيضاً من الحصول على قوى وبركات من الله الذي هو مصدر كل القوى والخيرات فنحسّ بالصحة والنشاط والقوة والحيوية.

هناك سبب آخر للقلق وهو مكانتنا في عيون الناس. نتساءل أحياناً ما إذا كان الآخرون يحبوننا ويحترمونا، وما إذا كانوا راضين عن أسلوب حياتنا. وقد تتأبنا الظنون بأن الغير يفتابوننا أو أنهم يضمرون نحونا بخلاف ما يبدو، فيساورنا القلق جراء ذلك. ولكن إن عشنا لنرضي الآخرين سيخيب ظننا، لأن الناس ليسوا بنفس المستوى من حيث الفهم والنمو والتجاوب. وعندما لا نقلق لردود أفعال الآخرين نرتاح نفسياً ونعيش حياتنا بالكيفية التي تروق لنا.

وهكذا نجد أن الحياة سلسلة متواصلة من المخاوف والهموم، تسلب الإنسان سلامه وتعكر عليه صفوه. ولكن هناك طريقة للإفلات من تلك الدوامة. لو عدنا بأفكارنا إلى أيام الطفولة لوجدنا أنها كانت خالية تقريباً من الهموم والشكوك والتناقضات. كنا نمتلك آنذاك ثقة تامة بأبويننا. ألا نستطيع أن نضع نفس تلك الثقة في الله مدركين أن نوره يهدينا ويحمينا على الدوام؟!

فلنعزز إيماننا به ولنذكر أنه رفيق دربنا الذي لا يتخلى عنا ولا يخذلنا حتى ولو هجرنا الجميع.

ولنتخفف من أعباء الحياة الثقيلة بتبسيط احتياجاتنا والتمتع بما أنعم الله علينا به، واثقين أنه سبحانه سيمنحنا كل ما نحتاج إليه. ومع تلك الثقة الضمنية بالله وعونه ستطمئن قلوبنا وتحرر من الخوف. والسلام عليكم.